«أَيَا توشكى»

راح يعتدل فى جلسته على حصيرة مهلهلة ، تراصت عروقها الصفصاف الجافة جنباً إلى جنب ، وهو يمسح وجه هيما النوبى الأسمر بنظرة متأملة دامت للحظات ، ثم قال بنبرة حزينة :

- الحياة هنا قاسية للغاية ، إنها مطوية فى جيبى الآن ، ألستُ محظوظاً ؟.

صمت برهة ، رجع خلالها برأسه إلى الوراء وهو ينفخ مردفاً :

- هيه كان الزحام شديداً ، وموظف السفارة أخبرنى بأنه لم تبق لىّ غير بعض الإجراءات القليلة «هه» وأطير إلى جنة الشقراوات .

تبللت بالدموع نظرات هيما الرانية إلى الوجه الآخر من الشمس ، فيما كانت الريح المصفرة تعبث بأطراف الشملة الداكنة الحمرة المطوقة لعنقه وكتفيه ، والمنسدلة تدريجياً حتى العود القديم الكائن فى حجره ، يزيح طرفها عن عينيه اللتين كانتا تسددان نظرة آسية ناحية الحجرة الكالحة الزاوية على السطح ، والمستلقية فى خشوع الرهبان بين أغصان شجرة الكافور العالية،

وقد انبعث مع بصيص الضوء المتسلل من شق الباب الخشبى الموارب صوت المذياع وهو يردد أنباء حزينة .

مصمص هيما شفتيه ، وقد تعقدت أساريره ، وبانت الرهبة على ملامحه وهو يتمتم بنبرة تنم عن ثورة غضب عارمة تمور تحت الجلد :

- المجانين يحفرون القبور تحت أقدامنا .

ترقرقت الدموع فى عينيه المنطفئتين ، ثم استطرد قائلاً باندهاش :

- ماذنبى ، بل ماذنب طفلتى البريئة ، طفلة كل المصريين، التى كانت واقفة أمام مدرستها ، إن عقلى سوف يشت ، آه ياشيماء[1] !.

راح يضرب كفاً بكف ، ويقلب ناظريه فى كل مكان :

- البوم والغربان السوداء لاتنعق إلا فى الخرائب والبيوت المهجورة ، هيه وأنت تريد أن تمضى مثل غيرك أيها الشاب .

- لقد يئست ، اننى ضائع كالريشة فى مهب الريح .

نظر هيما إلى الشاب عزت المصرى نظرة كلها إشفاق ، مد يده نحو ساقه ، يتحسس فى حسرة السنوات التى خلت ، والواقع

الأليم الذى جعله يترنح هكذا كلما أراد أن يسير ، فى حين بدت عينا الشاب تتفحصانه بحزن شديد ، فقال وقد انشقت عن صدره الضامر تنهيدة ساخنة :

- هو ذا الجنون بعينه ، ماأرق جَلَدكم أيها الشباب !.

صمت لحظات بدا فيها شارداً ، ثم قال وهو يحدق فى عينيه :

- الدماء تفسد لوجرت خارج عروقها .

كانت نظراته الحيرى قد ارتشقت بالفراغ الذى تساقط ظلاً بلا أصل تحته ، مما دعا هيما إلى الابتسام قائلاً ، وهو يسحب الريشة من بين خصلات شعره البيضاء الخشنة :

- لست حزيناً لفقدانها ،لأننى يوم فقدتها كنت أعرف السبب.

كانت أنفاس هيما اللاهثة تقرع سمعه ، وقد شرع يدندن بصوت شجى كله شجن ، تند عن أصابعه السمراء الناحلة ارتعاشة زمن جاف حمل صاحبه إلى حافة الهاوية ، تعزف على أوتار قلبه الممزقة لحناً قديماً ، فيما بدا منكب الرأس والصدر على عوده الخشبى ذى المقبض الأبنوس والأوتار المشدودة بحساب:

- أَيَا توشكى ..

أنا هالى ..

أشرى يا ؟..

سكار كالاجا ، أَيَا توشكى (٢) ..

توقف فجأة ، زفر فى ضيق باد ، وانتقل قافزاً إلى الناحية الأخرى متحاملاً على ساقه العرجاء ، وقد تراءت له فى مخيلته الصورة شاحبة ، ارتعش فى مكانه ، بدا وكأن شيئاً ما قد تقمص جسده ، وصوته ورعشاته ويعود به القهقرى ولاحيلة له بالمرة :

- هيه توشكى .

كانت الأرض تحت قدمى الطفل الأسمر البسيم تنبسط تارة وترتفع تارة أخرى ، وهو يجرى لاهثاً بين أشجار النخيل العالية، تلفح بشرته اللامعة أشعة الشمس الذهبية ، توقف برهة وهو ينظر إلى الوراء ناحية المعبد الفرعونى القديم وقد غاصت قدماه فى تلال الذرة المنثورة كالذهب ، ابتسم وهو يعدل طاقيته القطنية المزخرفة على رأسه ، والتى كلحت واصفرت من امتزاج العرق والتراب بلونها الأبيض الذى كان زاهياً ، ثم راح يناديها بصوت عالٍ قاصداً إغاظتها :

- أنا هنا ياكديسه [٣] .

راحت الطفلة السمراء المليحة المحيا تواصل مطاردتها له ، كان يسبقها بخطوات ، وقد بدا يقفز كالأرنب السريع متحاشياً الزكائب الخيش الملآنة بالبلح السكوتى والابريموده والقراقودة ، والمتراصة فى منظر بديع على مرمى البصر بين آجام النخيل، يفلت منها بالكاد ضاحكاً ، وقد أمسكت بجذع النخلة بدلاً منه، كانت أمه فى تلك الأثناء منهمكة فى تخليص حبوب الذرة الصفراء من القناديل ، بجوارها بدت جدته تشد أعواد الخوص الجافة بإحكام إلى بعضها البعض ، وتجرى أروع الألوان فى لُحمتها وسداها وقد شارفت على الانتهاء من صناعة السلة ، قفز الطفل متخطياً كومة السلال ، ثم والده النائم من التعب ساعة المقيل على أكوام الذرة ، ثم صعد إلى ظهر الساقية التى كانت تدور لحظتئذ بعينيها الدائختين وهو يتراقص أمامها ، تخطئه كرات الطين اللدنة التى كانت تقذفه بها ، يضغط على رافعة الشادوف وينثر منه عليها قطرات الماء الندية ، تصرخ ، يضحك ، ومن حولهما بدت على الوجوه السمراء ابتسامة حانية كشفت عن قلوبهم البيضاء الطيبة .

وفجأة أمسكت به فى اللحظة التى دوت فيها قنبلة من الصمت فى أنحاء البلدة جعلت القلوب تتخلع من أماكنها ، اتجهت

النظرات كلها ناحية النهر منتبهة إلى صوت مرعب ، كان رفاصاً أحمر اللون يمخر عباب النهر متجهاً صوب الشاطئ الذهبى ، على ظهره راح النوتى الأسمر شبه العريان يستعد لإلقاء الهلب على المرساة ، وهو يصرخ بصوت كله همه ونشاط :

- هيلا هوب .

كانت الأنفاس كلها قد احتبست فى الصدور ، وهى تتابع فى جزع شديد الخواجة العملاق وهو يمرق كالسهم نحو الأرض عبر لوح خشبى ، امتد طرفه من فوق حافة الرفاص المهتز حتى الطرف الآخر المنغرز فى وحلة الشاطئ ، راح يخطر فى مشيته كالطاووس المنفوش الريش ، حتى رقى رباوة من الأرض ، ثم استوى معتدلاً فى وقفته وهو يهز بيده عصاته ذات الرأس الثعبانية ، أخذ يرامق جموعهم لحظات ، وهو يضغط بشفتيه على طرف غليونه أسفل نخلة عملاقة ، تغمر وجهه شديد الحمرة نظرات الطفل الغاضبة، والذى لم ينس كذلك أن يحمل ذات النظرة اللاهبة إلى رجل قصير القامة غائص لركبتيه فى الصمت الخانع ، وقد أمسك ببعض الدفاتر بين يديه المعقودتين على بطنه ، كان يقف إلى الوراء على يمين المستر مدير مصلحة الرى ، والذى قطع حبل صمت الجموع بصوت هاتف جهورى ذى لكنة عربية عامية كسيرة:

- كله ، كله ييجى يسجل اسمه هنا فى الكشف آند شوكت افندى ، الهكومة هاتعوضكم كتير .

خيمت سحابة من الصمت المشوب بالترقب على أنحاء المكان، مرت فترة طويلة ، لم يتقدم أحد لتلبية مطلبه ، راح يعيد الكرة مرة تلو مرات ، جن جنونه عندما أحس بنيران ثورتهم الصامتة تسرى فى عروقهم ، وقد جثوا أمامه على عظام ركبهم النحيفة الناتئة التى انغرزت فى الأرض الطينية ، قال غاضباً وقد تلونوا فى عينيه بلون الطين :

- ياللا يا هيوان انت وهو مستنيين إيه ، النيل ها يغرقكم، مفيش فايده ، لازم كله يمشى من البلد .

انطلق صوت صارخ شق أجواز الفضاء من بين الجموع ، كان للشيخ عبدالواحد المجرابى :

- مشروع تعلية الخزان لازم يقف ياخواجه .

كانت هذه الكلمات قد ألقت بشبح ابتسامة ساخرة على شفتى الرجل الإنجليزى ، الذى هبط الربوة العالية قافزاً نحوه حتى التزمه تماماً ، وبنظرة حادة أخذ يتفرس فى وجهه الأسمر لحظات ، ثم قال وهو يداعب لحيته الذهبية بطرف إبهام يده اليسرى ، وهو ينفث فى الوقت ذاته غلالة داكنة من دخان غليونه فى وجه الشيخ الأشيب اللحية والحاجبين :

- موش ممكن خبيبى ، فاهم .

ثم أردف هامساً يريد أن يبطنه بصفة خاصة سراً ما :

- فى تأويض كويس أوى آشانك شيه أبد الواهد .

قال الشيخ وهو يهش بيده عن وجهه سحابة الدخان الكريهة الرائحة ، فيما كان يحدق بحدة فى وجهه الأحمر ، وقد بدا النيل يجرى هادئاً على مرمى البصر :

- لقد هاجر به الزمان طويلاً ، ولم يبرح مكانه قط كالدماء تفسد لو جرت خارج عروقها .

صمت هنيهة ثم قال بتحدٍ رصين :

- الكلاب عادة لاتصدق أنها كلاب ولو كانت تُلقى بالحجارة، صدقنى لن يبتل غير الذيل فقط للعملاق الكبير .

كانت المنشة تحت إبطه قد تحركت فى سرعة البرق الخاطف لاطمة وجه الشيخ المجرابى ، ثم استدار بعصبية بالغة وقد أطلق نظراته المفترسة مع صرخة غضب مدوية زلزلت جنبات البلدة الواجمة :

- شطب مصرى هيوان ، انتم أهرار خلى الطوفان يبلعكم ، مافيش فايده . مفيش تأويضات .

ثم مضى ميمماً شطر النهر على أنقاض نظراتهم الممتلئة بالخوف من المصير المجهول ، تَرجُمه أياديهم الموثوقة إلى ركبهم بحصيات سبع .

كانت عينا الطفل قد اغرورقتا بالدموع ، وقد لمح الكتلة السمراء ملتفة من حول الأفندى المطربش القصير القامة !، امتلأ صدره بالغضب وهو يرى نظرات الزهو والشماتة تعلو وجهه ، لم يشعر بنفسه إلا وهو يضرب وجهه الأحمر الدميم بحجر حاد الطرف كسكين حام .

ليلتها تكهرب الجو ، ليلة رعب لانظير لها تعيشها البلدة الحالمة، الهجانة فوق جمالهم العالية ، يجوبون نواحى البلدة وقد ألهبوا الظهور العارية بالسياط السودانية المغلية فى الزيت ، من بين شواهد القبور البيضاء ارتفع عويل النساء مختلطاً ببكاء الأطفال وتمتمات شيوخ جف ريقهم من كثرة الدعاء على الظلمة الفجرة المتوحشين، ظل يركض هارباً كالثعلب المراوغ، راح يشق الظلمة التى اكتنفت حقول البلدة التى أخليت تماماً أللهم إلا من القليل، وتخلل بين الديار المبنية من الحجر الأبيض والطَفلة وقد بدت شبه خاوية على عروشها إلا من نعيق البوم ونعيب الغربان ، ذات الطفلة السمراء أخذت تطارده بنظرات ملأى بالهلع والحيرة من المستقبل وقد جرت معه جنباً إلى جنب ، يتوقفان من شدة

الإجهاد ، تدفعهم الوساوس لمعاودة كرة الهروب ثانية ، وقد تحولت أشجار النخيل من حولهما إلى أشباح تريد أن تفتك بهما، وفجأة أحس بمياه الغمر تجتاح ذاكرته ، تجرفه إلى عالم مقبض، يصرخان ، يرتفعان كريشتين فى الفضاء ، تبتعد عن صدره الذى كانت متشبثة به ، تزايل أقداميهما الأرض فى لحظة وداع أبدية ، تشق ثغرها ارتعاشة أسنان بيضاء ظلت تصطك ببعضها البعض من شدة الوجل ، فقد توازنه وهو يحاول باستماتة صارخاً أن يمسك بيدها الصغيرة ، يقبض عدماً ووسوسات نفس واهمة ظلت تعذبه، ولم تزل بعد ، يتأوه متألماً :

- بحث عن قشة نجاة ، ولم يبحث عنها تحت قدميه .

صرخاتها كانت قد تحولت إلى فقاقيع هواء فارغة ، عكسها ضوء القمر الفضى على عينيه السوداوين ، نظراته المتناثرة عشواء فى كل مكان تلمح الأشباح وهى تصارع أيدى الموت الهلامية ، على الطرف الآخر من البلدة بدا الجبل رابضاً كحيوان خرافى أطل برأسه من قلب الطوفان ، أحس ببارقة أمل تموت غارقة مع اللوح الخشبى المهترئ الذى تخلى عنه ، كانت الأرض قد طويت من تحت قدميه تماماً، والزمان قد فرد شراعه الأسود الكالح على صفحة الأفق السرمدى ، أفاق على صورة جده المجرابى وهو يلاطم الأمواج العالية حتى رؤوس النخيل بذراعين أسمرين

ناحلين فقدا حساسية المقاومة ، تغوصان إلى الأعماق مع كلمة فاه بها عفو اللحظة المضطربة :

- إيجيليكا [٤] .

انهلت الدموع من عيني الطفل العجوز انهلالاً هستيرياً وهو يراها تتوارى خلف الأفق الشاحب ، فوراء الزمان المتباعد فأهداب بيضاء متساقطة على أخدود عينيه الخشن ، أخذ يردد بصوت حزين يقطر دمعاً سخيناً ، مع رعشات سبابة وإبهام تعزف على أوتار العود القديم :

- الغُز غرقوها ..

والزول الأسمر أبوقلب أبيض وطاقية [٥].

ماشى فى وسط الزيطه ..

يصرخ يخبط راسه فى الحيطه ..

النيل عمره مايعملها ..

ده ملعوبك يا احمر يابو برنيطه .

ودام الصمت طويلاً ، فيما كان يربت على ظهره المقوس وقد تدانى منه واقفاً :

- لاتبتئس أيها الطفل هيما .

ثم راح يشاركه صمته ونظراته الحزانة فترة من الوقت ، بعدها أردف متسائلاً بغية تغيير مجرى الحديث :

- لماذا لم تتزوج ؟ .

بدا عازفاً عن الرد لثوان معدودات ، تخللتها نظرات ذات دلالة عميقة بعدها قال وهو يتحسس ذاكرته بلسان جاف :

- لقد فقد الطفل ساقه ذات يوم على جبهة الحرب فى القنال ولم يبك قط ، أما اليوم .....

فى تلك الأثناء انتشلته خلجة ما ، وسرت قشعريرة الموت بين ضلوعه ومن خلال شراينه النابضة ، وقد تردد صدى ذلك الصوت الانفجارى الرهيب فى مسمعيه مختلجاً بصوت صراخ طفلة ، ونذير البوم الشؤم ينطلق من حناجر الغضب الأسود ، ارتعد وهو يمسح بقلق جم شعر رأسه الجعد ، ويراقص كأس العَرَقى شبه الفارغة بعينين غائرتين تجتران صورة وجهيهما الأسمر الأبيض الجميل ، فقال مستطرداً بعبوس :

- اليوم كدت أفقد الطفل نفسه ثانية لولا عناية الله .

شرد طويلاً ثم تساءل بدموع عينيه :

- هيه ماأشبه الليلة بالبارحة ، لقد كان وجه المسكينة عند قدمى ولم أتبين ملامحها جيداً ، فتراه كيف كان قبل ذلك .

- جميلة كالقمر ، ولقد شعرت أن من ينظر من خلال عينيها الوديعتين فلسوف يرى عالم طيب ودنيا رائعة ، خيل لىّ ذلك وأنا أتطلع إلى صورها فى الجرائد والمجلات .

- الثعابين الخبيثة يابنى لاترى من أعين قط غير أعينها الدامية .

نهض متوكئاً على عكازه ، اتجه صوب السور المبنى من الطوب الأحمر الملتف حول سطح العمارة العالية القديمة الساجية فى شبرا بالقرب من النهر ، ثم ارتكز بكفيه الأسمرين على حافته الأسمنتية، وراح يمسح بنظراته الثملة ربوع المدينة الكبيرة ، سحب نفساً عميقاً، كان يشعر بدوار سخيف وبالأرض تسحب من تحت قدمه وعكازه :

- ماذا دهاك أيها العجوز الطيب ؟.

قالها عزت دهشاً وهو يراه قد استدار على عقبه وهو يلقى بعكازه أرضاً ، وبانفعال شديد طوق عنقه النحيفة بيديه المعروقتين، وسدد نظرة دامعة إلى صفحة المغيب المشرقية وتساءل باستنكار :

- أليس جنوناً أن يخنق الإنسان نفسه هكذا !!؟.

قال مجيباً وقد أطرق آسفاً :

- بلى أيها الشيخ .

وبنبرة جافة ونظرة ألم مقيته قال له هيما:

- افعل مايحلو لك ، وهاجر كما تخطط ، أو لتذهب إلى الجحيم الأبدى ، أنت حر.

صمت برهة ثم قال مستطرداً وقد شمخ برأسه عالياً ، حتى تبدت أرنبة أنفه الأقنى وهى تلمع مع انعكاس أضواء أعمدة نور الشارع عليها مثل قطعة من الذهب البندقى :

- اليد الصغيرة لايمكنها أن تخنق عملاقاً كبيراً .

انتبه فجأة على دوى هذه الكلمات فى نفسه ، لاحت على شفتيه ابتسامة ناصعة ، شقت جوف الليل المسهد فوق هام المدينة ، استدار قافزاً ناحية حجرته المنزوية فى ركن قصى من السطح ، تخلى تماماً عن عكازه الخشبى ذى الرأس العاجية ، تثاءب تثاؤبة طويلة فبدا وكأنه لم ينم منذ ولد ، راح يتقلب فى فراشه ، ويتهادى على بحر أحلامه اللازوردى ، وقد اختلطت فى مسمعيه أصوات أبواق السيارات وأحاديث المارة فى الطرقات بصوت كلمات أخرى تراقص لها قلبه طرباً :

- سوف تظل فى جيبى لا فى عقلى ، لا أحلم بشقراء لاتحلم بىّ .

●●●

• توشكى قرية نوبية غرقت بعد أن غمرها فيضان النيل سنة ١٩٣٣ أثر التعلية الثانية لخزان أسوان بهدف زيادة المساحات المزروعة بالقطن فى شمال الوادى وبإيعاز من المستعمر الإنجليزى .

(١) هى الطفلة التى أغتيلت غدراً فى حوادث إرهاب التسعينات الشهيرة .

(٢) كلمات نوبية معناها التقريبى : « أنا هالى: كيف حالك»، « أشرى يا: الحمدلله وأنت ؟» ، « سكار كالاجا : مثل السكر».

(٣) كديسه : قطة .

(٤) إيجيليكا : تذكرونى .

(٥) الزول : الولد .